الفصل السابع

المنهج التربوى وتأصيل الثقافة العلمية(*)

- تمهيد
- المقصود بالثقافة والثقافة العلمية.
- ثقافة الفرد وثقافة المجتمع.
- الثقافة كأحد مقومات الفكر الإنسانى.
- دور المنهج التربوى فى إبراز العلاقة الدينامية بين الثقافة والإنسان.
- المنهج التربوى وتأصيل الثقافة العلمية.
- خاتمة.
- المراجع.

(*) المؤتمر القومي حول نشر وتأصيل الثقافة العلمية فى المجتمع، مركز تطوير تدريس العلوم (جامعة عين شمس)، ٢٠ ـ ٢١ أكتوبر ٢٠٠١.

تمهيد:

فى أغسطس سنة ١٩٤٥، نشر نص مشروع قانون أساسى لمنظمة سُميت «منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة» (اليونسكو UNESCO)، وقد حددت الفقرة الأولى غرض هذه المنظمة، فى الآتى:

«١ ـ أن تنمى وترعى الفهم المتبادل والتقدير المتبادل لحياة شعوب العالم وثقافتها، وفنونها، ودراستها الإنسانية وعلومها، باعتبار ذلك أساساً للتنظيم الدولى الفعال، والسلام العالمى.

٢ ـ أن تتعاون فى إمداد جميع الشعوب بحصيلة العالم من المعرفة والثقافة من أجل خدمة الحاجات البشرية المشتركة، وفى ضمان اسهامها فى الاستقرار الاقتصادى، والأمن السياسى، ورغد العيش بوجه عام، لشعوب العالم».

ويعلق (ت. س. إليوت) على لفظه (الثقافة) التى جاءت فى الحديث السابق، فيقول: «إن هذه الكلمة تستخدم عادة بأحد طريقين: إما بنوع من المجاز، عندما يعنى القائل عنصراً من عناصر الثقافة أو مظهراً من مظاهرها، (كالفن) مثلا، وإما على أنها نوع من مثيرات الانفعال ـ أو مخدراته ـ كما فى الفقرة السابقة»[١]، حيث يبنى (إليوت) وجهة نظرة السابقة، على أساس أن غالبية الناس لا يفكرون بعمق فى معنى كلمة (الثقافة)، قبل استعمالها.

ومع تقديرنا لوجهة نظر (إليوت) فيما يختص بطريقة استعمال (الثقافة) كنوع من مثيرات الإنفعال، فمن شبه المؤكد أن الثقافة مهمة جدا، إذ تتوقف عليها معرفتنا بالآخرين. بمعنى، كى نفهم الآخرين، علينا أن نفهم ثقافتهم من خلال كتبهم وصحفهم وأفلامهم وإذاعتهم.. إلخ، وبذا يمكن توطيد العلاقات معهم، وتأكيد جوانب التفاعل، وتحديد نقاط التلاقى، وتوضيح دلالة الميول والآمال المشتركة، وغير ذلك من المضامين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية.. إلخ، التى تجتمع تحت مظلتها طموحات وإحتياجات الإنسان، فى كل زمان ومكان.

حقيقة، قد يستخدم السياسيون لفظة (الثقافة) إستخداماً سياسياً، فتبدو وكأنها تمثل

بالفعل مثيرات أو مخدرات للإنفعال الإنسانى. ورغم ذلك، فإن هذا الأمر ينتفى بدرجة كيرة، إذا إتسمت الثقافة بالعلمية الخالصة، وذلك ما يجب أن تسعى مناهج التعليم العام بعامة، ومناهج التعليم الجامعى بخاصة، إلى تأصيله، حسب ما تظهره هذه الورقة البحثية.

أولا: المقصود بالثقافة والثقافة العلمية:

بادىء ذى بدء، ينبغى الإشارة إلى أن هناك نمطا عاما للتغيير طرأ على لفظة «ثقافة» ويمكن استخدام هذا النمط كخارطة يمكن الإسترشاد بها فى معرفة التغيرات العريضة فى الحياة والفكر، وفى اللغة أيضاً. وفى محاولة من «وليامز» فى كتابه (الثقافة والمجتمع ١٧٨٠ ـ ١٩٥٠) إكتشاف أن فكرة الثقافة، واللفظة ذاتها فى إستعمالاتها الحديثة العامة، برزتا فى التفكير الإنجليزى فى الفترة التى نصفها عادة بالثورة الصناعية، أوضح التغير الذى حدث لمدلول ومفهوم الثقافة.

وفى هذا الصدد يقول «وليامز»:

كان معنى الثقافة يدل أساساً على «إتجاه النمو الطبيعى» ثم أصبح معناه «عملية تدريب إنسانى». غير أن هذا الإستخدام الأخير، الذى كان يعنى تهذيب شىء ما فى العادة، تغير إلى أن أصبحت لفظة «ثقافة» تعنى شيئاً مستقلاً فى حد ذاته، وذلك فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وأصبح معناها أولا «حالة أو عادة عقلية عامة» ترتبط إرتباطاً وثيقاً بفكرة الكمال الإنسانى. وغدت تعنى ثانياً «الحالة العامة للتطور الفكرى فى مجتمع بأسره». والمعنى الثالث هو «الكيان العام للفنون». وفى أواخر القرن التاسع عشر أصبحت تعنى معنى رابعاً هو «طريقة شاملة للحياة: مادية، وعقلية، وروحية»(٢).

ولقد تطور معنى «الثقافة» فأصبحت بأوسع معانيها «البيئة المصطنعة بأكملها، التى يخلفها الإنسان بتأثير عمله فى العالم الخارجى، فتشمل الأدوات والآلات والأعمال المسماه بالفن، كما تشمل أدوات الفكر، والكلمات، والمفاهيم، والتقنيات العقلية، والحساب ، والمهارات».

فى ضوء ما تقدم، الثقافة «هى كل ما ترسب فى ذاكرة الفرد (الثقافة الفردية)، أو فى الذاكرة المشتركة لأفراد المجتمع (كما يتجلى فى المكتبات والمتاحف والمعاهد والأكاديميات)، وذلك نتيجة لآثار الخبرات والتجارب السابقة»(٣).

وهناك من يرى «أن الثقافة جزء لا يتجزأ من الحياة سواء أكانت على صعيد الوعى أم على صعيد اللاشعور، وسواء أكانت فردية أم جماعية. وهى تمثل الخلاصة الحية لمنجزات الماضى والحاضر، التى ترتب عليها عبر القرون نظام من القيم والتقاليد والأذواق تتحدد به عبقرية الشعب المعنى. وهى لابد إذن أن تطبع بطابعها جهود البشر الاقتصادية. وأن تحدد أسباب القوة والضعف فى عملية الإنتاج فى أى مجتمع»(٤).

أما تعريف الثقافة التالى، لقد جاء فى «المؤتمر العالمى للسياسات الثقافية» الذى عقد فى مدينة (مكسيكو سيتى) سنة ١٩٨٢: «الثقافة يمكن أن تعرف الآن بأنها مجموع السمات المركبة التى يتميز بها مجتمع من المجتمعات، أو أية مجموعة اجتماعية روحياً ومادياً وفكرياً وعاطفياً. وهى لا تشمل الفنون والآداب وحدها، ولكن تشمل أيضاً أساليب الحياة، وحقوق البشر الأساسية، وموازين القيم والتقاليد، والمعتقدات»(٥).

أيضا، يمكن تعريف الثقافة فى كلمات مختصرة، بأنها «ذوب المعرفة وذوب التاريخ. فهى ذوب ما نقرأ، وما نرى ونتأمل ونعيش ونتوارث. هى كل ذلك فى أعظم صورة، إذ يجرى عليها التثقيف، أى التنقية والإمتصاص والاستيعاب، والإبداع أقوالاً وأفعالا وسلوكاً»(٦).

مما تقدم، يظهر لنا أن لفظة (الثقافة) غامضة للغاية، وذلك يمثل أزمة حقيقية لدلالات ومضمون الثقافة ذاتها. فمعنى الثقافة من حيث كونها تهذيباً وتربية لعدد من الأشخاص، ينمو بإطراد ولايتناقص. أيضاً، الثقافة لها معنى آخر يدلل، «على ذلك الطراز من الشعور والفكر الذى يميز شعباً أو حقبة ككل.

وهى بالتالى صفة فكرية وروحية. وإذا ما تجاهلنا موضوع الارستقراطية الغامض،

ففى إمكاننا أن نقول، دون خوف، من تناقض أو مغالطة، أن درجة عالية من التهذيب الشخصى فى ذروة المجتمع، يمكن أن تتعايش جنباً إلى جنب، مع حالة خفيضة وغير لائقة من الثقافة، كمظهر بارز من مظاهر الحياة الاجتماعية»(٧).

وننوه إلى أن فكرة الديمقراطية تحوى من الغموض، بدون شك، ما تحويه كلمة الارستقراطية، لذلك فإن ظهور ثقافة مميزة لمجتمع حضارى متحضر بعينه، إلى حيز الوجود، يتطلب أن تتطور هذه الثقافة، لاعلى هامات دعائم سياسية واقتصادية، بل من داخلها المادى نفسه.

وعلى أية حال، مهما كان غموض المضامين بالنسبة للفظة الثقافة، فإنه يمكن للتعليم المؤثر الوصول إلى حل للمشكلة الثقافية من حيث التحديد والمضمون، إذ يسهم التعليم فى تكوين العقل الناضج الذى يستطيع استقراء الحقائق، ويترك طابعاً مميزاً فى شخصية الفرد وفكره، ويضع توكيداً مبالغاً فيه على العمل ونتائج النجاح فيه.

بمعنى؛ يمكن للتعليم وضع حدود فاصلة قاطعة للفظة الثقافة، عندما يصبغها بالفكر العمل الخالص.

والسؤال: ما المقصود بالثقافة العلمية؟

إن الكمال فى أحد مناشط الثقافة المختلفة، دون بقية الجوانب، لا يمكن أن يسبغ الثقافة على الفرد. «فنحن نعلم أن السلوك المهذب بدون تعليم أو فكر أو حساسية للفنون يجنح بالمرء إلى آلية مجردة، وأن العلم بدون سلوك مهذب أو حساسية إنما هو حذلقة؛ وأن القدرة الفكرية مجردة من الصفات الأكثر إنسانية لا تستحق الإعجاب إلا كما يستحقه ذكاء طفل معجزة فى لعب الشطرنج، وأن الفنون بدون إطار فكرى زيف وخواء»(٨).

من المنطق السابق، يمكن تعريف **الثقافة العلمية**، بأنها:

الراسب المتبقى فى عقول ووجدان الأفراد المهتمين بالعلم النظرى والتطبيقى ،

بحيث يتضمن هذا الراسب شتى ألوان المعرفة العلمية، والفنون، والآداب، وأساليب الحياة، وحقوق البشر الأساسية، والقيم الخاصة بالإنتماء والتقاليد والأعراف والمعتقدات، وبحيث يعكس هذا الراسب الخبرات والتجارب السابقة، والخلاصة الحية لمنجزات الماضى والحاضر. ومن خلال هذا الراسب يكون الفرد على وعى وإدراك كاملين بموضوعات بعينها، بحيث يتحقق فى هذه الموضوعات مايلى:

* أن تتسم الموضوعات ـ حتى وإن كانت أدبية أو فنية أو مسرحية ـ بالطابع العلمى، حتى نضمن مصداقيتها، بشرط عدم إهمال أو إغفال الجانب الجمالى لتلك الموضوعات، وبذا يمكن تحقيق المزاوجة بين العلم والأدب، وذلك يتوافق مع التكامل فى النمو الإنسانى عند الفرد فى شتى المجالات.

* أن تتضمن الموضوعات خبرات الماضى الصالحة والطالحة على السواء، مع إلقاء الضوء على الفروق الفارقة بين تلك الخبرات، ليدرك الفرد أسباب نعت بعض خبرات الماضى بأنها طالحة.

* أن تهتم الموضوعات بخبرات الحاضر، وأن تبشر فى الوقت ذاته بالتطلعات المستقبلية.

* أن تعكس الموضوعات السمات الاجتماعية والروحية والمادية والفكرية والعاطفية لمجتمع المهتمين بقضية العلم والتكنولوجيا، وأن تبرز أيضا آمال وطموحات وجهود هؤلاء الأفراد.

ثانيا: ثقافة الفرد وثقافة المجتمع:

إن ارتباطات لفظة (الثقافة) تختلف بحسب ما نعنيه، أهى نمو الفرد، أم الطبقة، أم المجتمع بأسرة، لذلك ظهرت وجهة نظر ترى أن «ثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة أو طبقة، وأن ثقافة الفئة أو الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع كله، الذى تنتمى إليه تلك الفئة أو الطبقة، وبناء على ذلك فإن ثقافة المجتمع هى الأساسية»(٩).

وعلى الرغم من وجاهة الرأى السابق، فإن الواجب يقتضى التنويه إلى الدور المهم للمثقف فى بناء ونمو ثقافة المجتمع. فالمثقف ليس كسائر الأفراد العاديين، وإنما هو

الفرد الذى لديه القدرة على قيادة حركة المجتمع الثقافية، فيطورها وينحو بها نحو التحديث.

وفى المقابل، عندما يرفض المجتمع هؤلاء المثقفين، أو يلفظ أعمالهم وتوجهاتهم، بسبب تمسك المجتمع بالفكر السلفى، وتقوقعه على ذاته، متشرنقاً تحت عباءة القديم، فإن الحركة الثقافية غالباً ما ينطفىء بريقها، وتتمحور حول المأثورات فقط. أيضاً، تظهر المشكلة السابقة حادة، عندما يحدث صدام بين المثقفين والسلطة، وخاصة إذا كانت أفكار المثقفين مناهضة لأسلوب وطريقة الحكم.

إذاً، العلاقة بين الفرد المثقف وثقافة المجتمع نفسه، تبرز أن الفرد المثقف لايستطيع أن يبتكر ثقافياً إذا كان المناخ الثقافى فى المجتمع مقيداً بأغلال، أو مهترءاً بأفكار لا تناسب العصر. وفى المقابل، فإن قوة الثقافة فى المجتمع، تتوقف على الجهود الأمينة والصادقة لأفراده المثقفين.

ومن جهة أخرى، يوجد إرتباط وثيق الصلة بين الثقافة والتنمية الشاملة بجميع أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتعليمية.. إلخ. فالثقافة ليست مجرد وسيلة لخدمة أهداف بعينها، بل إن دورها الحقيقى والفعلى يشكل الأساس الاجتماعى للأهداف ذاتها، وبذلك تكون التنمية والاقتصاد هما جزء من ثقافة أى شعب(١٠).

تأسيساً على ما تقدم، فإن من يضع الثقافة فى مواجهة التنمية، إنما يطرح قضية الأصالة والمعاصرة فى ثوب جديد، ويطالب بإعادة فتح باب الاجتهاد، إما لأن الموضوع غدا مستهلكاً، وإما لنقص الاقتناع بنتائج الحوار فيه واللجاج حوله، رغم أنه كان الشغل الشاغل لمفكرى العالم العربى منذ بداية عصر النهضة فى كل بلد عربى(١١).

أيضا، يجدر الإشارة إلى أن «التكنولوجيا المتقدمة والاختراعات العظيمة، التى تعمق معنى الزمان، وتزيل حواجز المكان، وتوطد الروابط بين البشر، مجرد أشكال للحضارة الإنسانية الحديثة، أما مضمونها فهو الذى يعمق معنى الوجود الإنسانى،

الذى يكفل حقوق الإنسان والضمان الاجتماعى له، كما يسهم فى إحلال الضمير الجماعى محل الضمير الفردى»[١٢]، وذلك يبرز الدور الرائع للثقافة، إذ بدونها تكون التكنولوجيا مجرد شكل بدون مضمون، وعلى أساسها تتحدد بدقة الأدوار التى يجب أن تتحمل مسئولياتها، والحدود التى يجب أن تقف عندها.

لقد تحمل بعض المثقفين العظماء مسئولية التصدى لهيمنة الآلة وسيطرتها على الإنسان، ورفضوا أن يكون مضمون الآلة مادياً بحتاً، بحيث يقتل المعانى الجميلة والسامية فى نفس الإنسان، وبحيث يلبد مشاعره وأحاسيسه. إنهم لم يرفضوا الآلة ذاتها، ولكنهم رفضوا أن تكون بعض توظيفاتها، السبب فى تدمير الجانب المعنوى عند الإنسان، أو أن تسلب حقه فى حياة حرة كريمة.

فى ضوء ما سبق ذكره، نقول أنه فى المجتمعات الديمقراطية المستقرة، تكون ثقافة الفرد السبب المباشر فى إزدهار ثقافة المجتمع، كما تؤكد ثقافة المجتمع حرية الفرد فى الإبداع الثقافى المتميز، وبذا لا يمكن وضع حدود فاصلة بين ثقافة الفرد أو ثقافة المجتمع، لأنها يسعيان معاً من أجل تحقيق حياة أفضل للإنسان، فى الحاضر والمستقبل على السواء.

ثالثا: الثقافة كأحد مقومات الفكر الإنسانى:

تمثل المنجزات البشرية لمجتمع ما، الظواهر الثقافية السائدة فى هذا المجتمع. والظواهر الثقافية، قد تتباعد عصورها، وتتنوع مجالات النشاط التى تنتمى إليها، ورغم ذلك، فإنها تجسد المعانى الإنسانية التى يسعى الإنسان إلى تحقيقها من خلال إيمان بفكر وعمل دؤوب. وفى سعى الإنسان لتحقيق المعانى الإنسانية التى تعكسها الظواهر الثقافية، عليه أن يتضامن مع الآخرين، وأن يدرك أمانيهم، وأن يحس بإحساساتهم، وأن يراعى مشاعرهم، وأن تكون نظرته للأمور عاقلة وهادئة، وأن يحسب حسابات المستقبل بوعى، وألا يضحى بالحاضر فى سبيل ماض ولى وذهب فى حال سبيله بشرط أن يستفاد من خبرات الماضى الثمينة، وأن يكون لديه القدرة على إستقراء التاريخ. إذا إستطاع الإنسان أن يفعل ذلك، فسوف يؤكد على المعانى

الإنسانية التى تتضمنها الظواهر الثقافية، ويثبتها، ويسهم فى تطويرها نحو الأفضل، كلما سنحت الفرصة لذلك.

والسؤال: ما المنجزات البشرية التى تمثل الظواهر الثقافية؟

إن كل ما يحيط بنا يمثل المنجزات التى قام بها الأفراد فى سالف الزمان، وفى الوقت الحاضر. دعنا نتأمل المنجزات التى حولنا وندقق فيها، لنعرف أنها تمثل بالفعل ظواهر ثقافية. الأهرامات فى مصر، السور العظيم فى الصين، حدائق بابل المعلقة فى العراق، معبد تاج محل فى الهند، ألا تمثل أعمالا رائعة شامخة، رغم مرور ألوف السنوات عليها. أيضاً، فإن الأعمال العظيمة المحكمة الصنعة السابقة، ألا تثير فى نفوسنا الإعجاب والإجلال والتقدير للإنسان فى مصر والصين والعراق والهند، وألا تجعلنا ندرك شيئاً مهماً له مغزاه ومعناه، وهو: «لكى يحترم الآخرون ثقافتنا، علينا أن نحترم أولا ثقافتهم».

إذا كان التوضيح السابق قد نقلنا نقلة بعيداً جداً عمرها ألوف السنوات الماضية، فدعنا الآن نأخذ مثالا آخر عمره قريب جداً بالنسبة للمثال السابق. فلنتأمل أعمال موزارت، وبيتهوفن، وسيد درويش الموسيقية، لنعرف كيف بدأ (موزارت)، فى وضع سيمفونياته الرائعة وهو صبى صغير لم يتجاوز العشرين من عمره، وكيف أبدع (بيتهوفن) فى الموسيقى رغم إصابته بالصمم، وكيف أنجز (سيد درويش) أعمالا رائعة عظيمة مازالت تعيش فى وجداننا حتى الآن رغم ظروف حياته المعيشية الصعبة آنذاك. إن هذا المثال يوضح لنا أن الإنسان يستطيع أن يبدع، وأن يبتكر فى أى سن، وتحت أى ظروف. وفى إبداعه وإبتكاره، إنما يضيف للبشرية قيماً ثقافية تنهل منها الأجيال فى حياته، وبعد مماته. وقد تظل هذه القيم الثقافية باقية، ومرتبطة بأسماء أصحابها، لأنها تكون كعلامة فى الطريق بالنسبة لمجالها.

إذا كان التوضيح الثانى قد نقلنا نقلة قريبة نسبياً، إذ إن عمرها الزمنى لا يزيد أبعدها عن قرنين مضيا، فدعنا ننظر بعين الإعتبار إلى الأشياء الموجودة من حولنا الآن، وتمثل أنماطاً حياتية نعيش فيها، ونتعامل معها مباشرة. ألم تفزعنا حوادث الإرهاب على (نيويورك) و (واشنطن) التى حدثت فى الحادى عشر من شهر سبتمبر

٢٠٠١. أيضا، ألم تقلقنا الحرب التى دارت بين إيران والعراق، والتى إستمرت أكثر من سبع سنوات، ثم تنفسنا الصعداء لوقف القتال بينهما. أيضا، على مستوى الأحداث التى تحدث يومياً، ألا تزعجنا عمليات الإرهاب الوحشية التى تقوم بها إسرائيل ضد الفلسطينيين، وألا يصيبنا بصدمة قوية الحصار الاقتصادى المفروض على العراق منذ أكثر من عشر سنوات مضت، دون مبرر عقلانى. إن ما تقدم، يوضح لنا أن الخلافات والحروب لا تحل المشكلات، وإنما الذى يحلها هو التفاهم من أجل إقرار السلام العادل.

وكمثال آخر، ألم نعيش فى خوف وهلع بسبب تفشى مرض (الإيدز)، ذلك المرض الذى يقضى ويدمر أجهزة المناعة داخل جسم الإنسان، ونعيش الآن فى إنتظار وترقب لما سوف تسفر عنه جهود الأطباء والعلماء فى سبيل القضاء على هذا المرض، أو الوقاية منه على أقل تقدير. أيضاً، ألا نعيش فى ذعر بالغ، بسبب ظهور حالات الإصابة بالجمرة الحمراء فى الولايات المتحدة الأمريكية، التى تسبب الوفاة فى خلال أيام قليلة جداً. ويعود الذعر الذى يجتاح العالم بسبب الجمرة الحمراء، إلى إمكانية تخليق الفيروس المسبب لها، بطريقة كيميائية، ونقله من مكان لآخر، عبر الخطابات والطرود البريدية. إن ما تقدم، يبرز لنا أهمية التمسك بالشرائع الدينية، والمبادىء الخلقية التى تنظم علاقة الإنسان بخالقه، كذا أهمية أن يعيش العالم فى سلام وأمان.

وكمثال ثالث، فإن الظروف المادية الصعبة فى مصر، وتدنى مستوى دخل الفرد، نتج عنهما مظاهر اجتماعية بغيضة. لذا يفتقر الناس إلى التعاون والتضامن كقيم إنسانية ثقافية نبيلة. ولكن إذا حللنا أسباب ما تقدم، نجد أن الزيادة الرهيبة فى عدد السكان تمثل أحد الأسباب الرئيسة لحدوث الظاهرة السابقة، وما ترتب عليها من نتائج خطيرة. لذا، نجد الدولة تسعى جاهدة لتشجيع تحديد النسل.

خلاصة القول، تمثل أفعال وأعمال الناس الظواهر الثقافية التى تسود فى مجتمع هؤلاء الناس. وهذه الظواهر قد تكون إيجابية، فتعمل على بناء المجتمع، وقد تكون سلبية، فتعمل على تدمير المجتمع. وعندما نقول الناس، فإننا نقصد الأفراد العاديين، والأفراد النابهين. وهكذا الحال أيضا، بالنسبة للعلاقات بين الدول بعضها البعض.

والسؤال: ما دور الأفراد العاديين فى صنع ثقافة المجتمع؟

حقيقة، أن الأفراد النابهين والموهوبين ممن لهم مكتشفاتهم العلمية، وإنجازاتهم التكنولوجية التى تنطوى على منهج علمى دقيق يجسد قيماً ثقافية رفيعة المستوى، وأصيلة، كالموضوعية، والدقة، والإتساق المنطقى، والأمانة العلمية، والتعاون، والمثابرة فى إكتشاف الحقيقة، والتفانى حتى الموت، هؤلاء هم الذين سوف تبقى أعمالهم وتخلد.

ورغم ما تقدم، فإن الأعمال العظيمة لهؤلاء العباقرة ما لم تجد المناخ الصحى الملائم ما ظهرت إلى حيز الوجود، وما رأت النور مطلقاً. وهنا يأتى دور الأفراد العاديين، لأنهم يمثلون أولا وأخيراً هذا المناخ الذى من خلاله يبدع المبرزون، ويبتكرون. ولعل قصة (جاليليو) ما زالت ماثلة فى أذهاننا، إذ أنه بسبب إكتشافه لبعض الأجرام السمائية عن طريق التلسكوب الذى صنعه، قد حكم عليه بالموت حرقاً. وهنا قد يقول قائل: ألم يذهب (جاليليو) وبقى إكتشافه؟ وأرد عليه وأقول: «إن العلماء كما قلت من قبل يحملون أعمارهم على كفوف أيديهم، ولكن ماذا كان يحدث لو وجد (جاليليو) المناخ المناسب؟. فى تصورى، لو حدث ذلك لإستمر (جاليليو) فى إبداعه وابتكاره، وإكتشف إنجازات علمية جديدة ربما وفرت على البشرية مئات السنين لمعرفتها بعد ذلك».

كذلك، يتمثل دور الأفراد العاديين فى أن القيم الثقافية التى قد يأتى بها النابهون إنما تعكس آمال وطموحات الأفراد العاديين. كما تتأكد هذه القيم من خلال تفاعل الأفراد العاديين مع بيئتهم المادية والاجتماعية.

وبإختصار، فإن القيم الثقافية التى لا يتذوقها الأفراد العاديون، ولا يشاركون فى تطبيقها فى حياتهم العادية أو إستخدامها فى ممارساتهم المعيشية، لن يكون لها وجود حقيقى وفعال، ولن تصبح أبداً أحد أركان التراث الثقافى القومى[١٣].

رابعاً: دور المنهج التربوى فى إبراز العلاقة الدينامية بين الثقافة والإنسان:

بادىء ذى بدء، يجدر الإشارة إلى أن عملية بناء المنهج التربوى تتأثر بعوامل عدة

متداخلة ومتشابكة، لذا يعد المنهج نفسه منظومة فرعية لعدد من المنظومات الأكبر، هى على الترتيب: النظام التعليمى والثقافة القومية والثقافات الإنسانية والإقليمة.

وعلى الرغم من أن المنهج منظومة فرعية من المنظومات الأكبر التى سبق التنويه إليها، فإنه يؤكد تلك المنظومات، ويعمل على تثبيت أركانها، إذ أنه الأداة الرئيسة لتحقيق أهداف التربية، التى مقصدها الأول والأخير هو الإنسان، الذى بدون تفكيره تفقد الحياة ذاتها معناها ورونقها، وبدون فكره يكون الحديث عن المنظومات عبثاً وهراءاً، لاقيمة له.

ان المنهج كمنظومة، يقوم على أساس تداخل وتشابك المدخلات التالية:

- أهداف المنهج.
- محتوى المنهج (المقررات الدراسية، ومفاهيمها، وطرق التفكير فيها).
- أساليب ووسائل تنظيم المحتوى فى صورة أنشطة وخبرات تعليمية تعلمية يمكن تطبيقها.
- التقييم (التقييم أثناء التنفيذ - التقييم النهائى).

أما العمليات التى تتم على المدخلات السابقة، فتتمثل فى التفاعل بين عملية التعليم من جانب المعلم، والتعلم من جانب المتعلم. إذا تمت العمليات بالشكل المرسوم لها، فإن المخرجات لا تتمثل فقط فى إعداد الفرد المتعلم، الذى يكتسب مجموعة من المعلومات والمعارف، أو يعرف بعض ألوان المعرفة، بل - بجانب ما تقدم - تتمثل فى إعداد الفرد المتعلم الذى يستطيع توجيه سلوكه بنفسه، بشكل يصبح فيه معاوناً للنظام التربوى ذاته فى تحقيق أهدافه، وليس متناقضاً معه أو محايداً، وبذلك يتسم هذا الفرد بسمات إيجابية وصفات متنوعة، من أهمها:

- قوى العقل، وبذا يتمكن من المواد الدراسية، وتكون له ثقافة واسعة وعميقة.
- متزن إنفعاليا، فتقوم أحكامه على اليقين، وتكون صادقة.
- متطلع إلى المستقبل، فلا يتقوقع على الحاضر فقط، وبذا يثمر فى نموه الذاتى.
- إنسانى النزعة، فيتمسك بقيمه وأخلاقه وأصالته، ويتفاعل مع الآخر، ولا يحجب المساعدة العلمية أو المادية أو المعنوية عمن يحتاجها.

ويمكن تلخيص الحديث السابق فى الشكل التالى، الذى يوضح مخرجات منظومة المنهج:

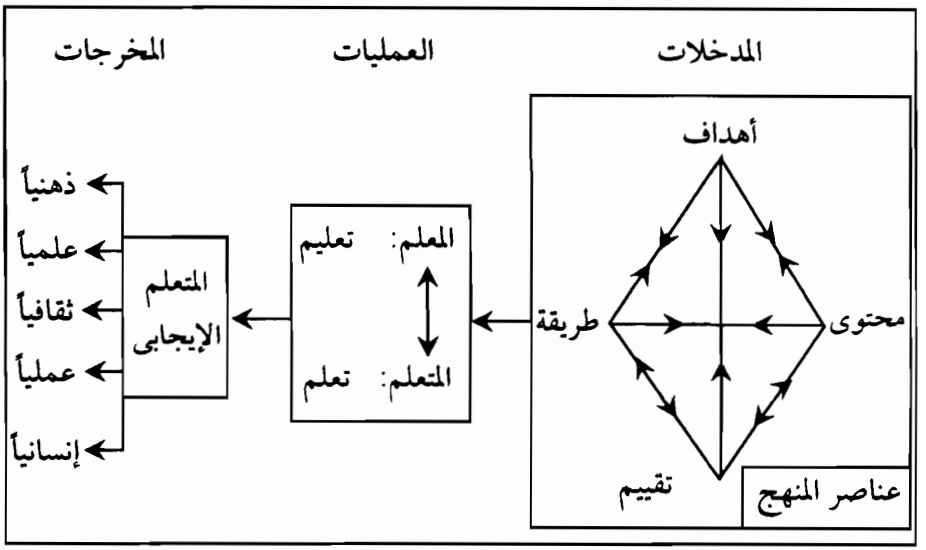

منظومة المنهج التربوى

وعليه، يكون المتعلم الإيجابى هو المقصد الأساسى لأية عملية تعليمية تعلمية، وبذا يسهم المنهج كأداة رئيسة للتربية فى إكساب الفرد المتعلم إيجابيات فى نواحى عديدة، ما يهمنا منها فى هذه الورقة البحثية، الجانب الثقافى.

فى ضوء ما تقدم، يكون للمنهج التربوى دوره المهم فى إبراز العلاقة الدينامية بين الإنسان والثقافة، وذلك ما يظهر فيما يلى:

إذا كانت التربية عملية إبتكرها بعض الناس للتأثير على غيرهم من الناس، وبخاصة حين يكون هؤلاء الغير صغاراً يسهل التأثير عليهم، للخير أو للشر. لذا تسعى التربية الصالحة إلى إكساب الفرد المهارات التى يحتاج إليها فى حياته. كما، تتضمن التربية التأثيرات التى من خلالها، يمتص الفرد القيم التى يقرها المجتمع(١٤).

أما عن التربية داخل المدرسة، فهى تهتم بتعريف التلاميذ قواعد وأساسات العلم بمختلف فروعه. كما، تهتم ببث القيم الأخلاقية التى تتضمنها المناهج المدرسية، ونبتها فى نفوس التلاميذ.

إذن، على ضوء أن الثقافة هى الراسب المتخلف فى عقولنا، وأن التربية هى العملية التى يتولاها الأفراد أو المجتمع لتحديد تكوين هذا الراسب، يمكن الزعم بأن هناك عدة أنماط من التربية تبعاً لطبيعة العمليات التى تؤدى إلى الترسيب الذى هو فى الوقت نفسه أداة عقلية، وشكل من أشكال التحجر العقلى. وكمثال، يمكن التمييز بين التربية النفسحركية (مسك القلم ـ قيادة السيارة ـ الكتابة على الآلة الكاتبة ـ...)، وبين التربية المعتمدة على العقل بدرجة كبيرة (معرفة الحروف والأرقام والكلمات والصيغ ـ الرموز والشفرات ـ التكيف مع الأوضاع ـ إستحضار صور الماضى فى الذهن ـ ...). وهنا ينبغى أن نفرق بين نمطين من التربية من ناحية إكتساب الثقافة مهما كان نوعها، وهما: التربية المركزة، وهى مفهوم ضيق للتربية، لأنها تقوم على نظام التركيز فى الزمان والمكان. أما التربية الذاتية، وهى التربية فى مفهومها العريض، فهى تربية لا ترتبط نظرياً بنقطة معينة فى الزمان والمكان[١٥].

وإذا كنا قد تحدثنا عن التربية، فإننا نخصص الحديث فيما يلى عن دور المنهج التربوى فى إبراز العلاقة الدينامية بين الإنسان والثقافة، فنقول أن المنهج عليه أن يؤكد ويبرز خلال المواقف التدريسية داخل حجرات الدراسة وخارجها ما يلى:

* إستشراف المعانى والقيم الثقافية يتجاوز إرضاء وإشباع الحاجات البيولوجية الأولية، لأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

* العمل أحد الأساسيات الرئيسة التى تقوم عليها الثقافة. ويتطلب العمل أن يتلاحم الإنسان مع الطبيعة والأحداث والناس فى المجتمع الذى يعيش فيه.

* الثقافة تراكمية البناء، إذ إن الأعمال الجديدة لا يمكن أن تقوم لها قائمة دون إستيعاب لما أنجزه السابقون، حتى يمكن إبعاد وإهمال القيم الثقافية التى أصبحت لا تناسب ظروف العصر وإمكاناته.

* الثقافة أولا وأخيراً تخص الإنسان، وهى من صنعه فى أغلب الأحيان. لذا، يجب أن يدرك الإنسان أن علو قامته وسمو مكانته يتوقفا على ما تتضمنه منجزاته من

معان راقية، وبذا ينبثق لديه الوعى بذاته، فيعرف الحدود التى ينبغى أن تكون عليها علاقاته بالآخرين وبالحياة ذاتها.

* الثقافة إنعكاس لما يبتكره الإنسان لنفسه وللآخرين. لذا، ينبغى ألا يفكر الإنسان فيما يخصه فقط، بل عليه، أيضاً، أن يفكر فيما يصون ويحافظ على حياته وعلى حياة الآخرين، فى الوقت ذاته.

* آفاق الثقافة تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتتفاعل جوانبها المختلفة فيما بينها. لذا، ينبغى أن ينطلق الإنسان من عالم الواقع ليرتاد آفاق المجهول ليحاول كشف أسراره.

خامسا: المنهج التربوى وتأصيل الثقافة العلمية:

يجدر الإشارة إلى المراجعات، التى تحققت فى نهاية القرن العشرين، حيث تتعلق تلك المراجعات بالوجود الإنسانى ذاته فى ظل الثورة العلمية والتكنولوجية وثورة الاتصالات. وحيث أن الثقافة تخص الإنسان أولاً وأخيراً، فإن هذه المراجعات لها علاقة مباشرة ووثيقة بالثقافة.

وفيما يختص بالمراجعات التى تحققت فى نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الحادى وبالعشرين، يقول (السيد يسين) ما يلى:

«تطورت العلوم الاجتماعية والإنسانية تطوراً غير مسبوق، وأصبحت السياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة تخضع لدراسات عملية متعمقة، بنيت على أساسها سياسات تحديثية فى مختلف المجالات، مما أسهم فى تطوير الحياة الإنسانية والارتفاع بمعدلات نوعية الحياة... أما فيما يتعلق بمراجعة وضع الوجود الإنسانى ككل، فيمكن القول إن أبرز من قاموا بالمراجعة هم فلاسفة حركة ما بعد الحداثة الغربية، الذين لم يقنعوا بتوجيه النقد العنيف لحركة الحداثة الغربية، ولكنهم بشروا بعالم جديد، سماته التركيز على حرية الإنسان، وتفكيك البنى الشمولية، سواء فى مجال المعرفة بإعلان سقوط الأنساق الفكرية المغلقة وبداية عصر الأنساق الفكرية المفتوحة، أو فى مجال

الحياة السياسية بإعلان موت الحزب السياسى الواحد، ونهاية احتكار السياسة لفئة المحترفين السياسيين، واعتبارها مجالاً إنسانياً رحباً، ينبغى أن ينسع ليشمل كل الفاعلين الاجتماعيين، تحقيقاً لهدف إلغاء السيطرة المطلقة للدولة، وإحياء المجتمع المدنى وزيادة فاعليته، وتوسيع إطار المشاركة الاجتماعية... ومن ناحية أخرى، نجد كتابات حديثة تحاول الدعوى لممارسة النقد الثقافى الذى لا يقنع فى دراسة الإنتاج الإبداعى بالتركيز على الجماليات، وإنما يغوص للكشف عن القيم الثقافية الكامنة فيه»(١٦).

فى ضوء الحديث السابق، وفى ظل الواقع الفعلى الملموس، ومن خلال خبرة الكاتب، يمكن الزعم بالآتى:

١ ـ رغم التطور الكبير الذى أصاب العلوم الاجتماعية والإنسانية فى الدول الغربية، والذى نالت منه بعض الدول النامية قسطاً لا بأس به فى ذات العلوم على المستوى الجامعى، فإن الدراسات التى تحققت فى مجال السياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة، لم تسهم كثيراً فى رسم سياسات تحديثية فى مختلف المجالات.

٢ ـ إذا كان فلاسفة حركة ما بعد الحداثة الغربية، قد بشروا بعالم جديد، يركز على حرية الإنسان، ويرفض البنى الشمولية، فإن الفلاسفة فى الدول النامية فشلوا تماماً فى تحديد المضمون الفعلى لحرية الإنسان، وحددوا أبعاداً هشة لتلك الحرية، لأنهم يعملون أساساً فى ظل نظم روتينية عتيقة، ترفض غالباً حركات التحديث، وتتمسك بالقديم، دون تقديم أسباب منطقية أو عقلانية لهذا التمسك، وذلك الرفض.

٣ ـ أيضا، ينظر فلاسفة الغرب إلى السياسة كمجال سياسى رحب، يجب أن يتسع ليشمل كل الفاعلين الاجتماعيين. ولكن، فى ظل الأنظمة الشمولية السائدة فى غالبية الدول النامية، لا يمكن تحقيق هذا الأمر، لأن الحكم أساساً يرتبط بالسيطرة المطلقة للدولة.

٤ ـ وكمخرج طبيعى للنقاط الثلاثة السابقة، فإن غالبية الممارسين للنقد الثقافى، فى دراساتهم للإنتاج الإبداعى، يركزون على الشكل وآلياته، دون الإهتمام بالمضمون وتفعيلاته، لذلك لا يحاول غالبيتهم كشف القيم الثقافية الكامنة فى الإنتاج الإبداعى، بحجة أن المناخ العام يقبل الهش من الأمور، ويرفض العميق والمتعمق فى ذواتها.

تأسيساً على ما تقدم، يظهر الدور المهم للمنهج التربوى فى تأصيل الثقافة العلمية، التى تحمل فى مضمونها وبين جنباتها قيماً سامية، تستطيع أن تنازل السلبيات السابقة، وتناطحها حتى تطرحها أرضا. فالثقافة العلمية، تستطيع أن تحلل، لتظهر الأبعاد المختلفة والمتعددة لأى موضوع، ومدى إرتباطات هذه الأبعاد ـ من قريب أو بعيد ـ بالموضوعات الأخرى. وأيضاً، تستطيع أن تنقد ما تقوم بتحليله، لتظهر الايجابيات والسلبيات بالنسبة لأى موضوع، وبذا تفرز الثمين وتحافظ عليه، وتنحى الغث أو تهمله تماما. ناهيك عن أن الثقافة العلمية تقوم على أساس عميق وشامل من القضايا التى تهم الإنسان، والتى يتم تقديمها بأسلوب رصين يضمن سلامة ودقة مضاميها.

والسؤال: كيف يسهم المنهج التربوى فى تأصيل الثقافة العلمية؟

عند تصميم المنهج التربوى، ينبغى إعادة النظر فى بنية المحتوى ذاته، وفى أساليب الممارسات والنشاطات التى يجب أن يقوم بها المتعلمون، وفى طرائق التفاعل بين المعلمين والمتعلمين، وفى تحديد فلسفة للمنهج تقوم على أساس نظرة مستقبلية للأهداف التى يسعى لتحقيقها، وللمواد الدراسية التى يتضمنها، مع مراعاة الآتى:

١ ـ الثقافة العلمية تسهم فى تحديد أبعاد التقدم العملى ـ التكنولوجى، الذى يسهم بدوره فى تحديد صورة المستقبل.

٢ ـ الثقافة العلمية «تدعو إلى التساؤل حول مصير الإنسان العامل فى ظل هذا التقدم المذهل الذى قد يتحقق فعلا؟! والتساؤل الجدى حول الحدود التى ستفصل بين

ماهيـة الإنسان البشرى الحـى والإنسان الآلى القادر بـفضل ما أودعه فيـه الإنسان البشرى من ذكاء اصطناعى قد يتفوق يوماً على عقلية صانعه».

٣ ـ الثقافة العلمية تدرك أن التلاقح بين: الثورة المـعلوماتية والثورة البيوجزيئية وثورة الكم، هو الملمح الرئيس من ملامح كل ما سـيحدث من تطور علمى وتكنولوجى مـذهـل، سـوف يـحـقـقـه أو يـشاهـده الإنـسـان فـى بـدايـات الـقـرن الحـادى والعشرين(١٨).

٤ ـ الثقافة العلمية تقوم على أساس التزاوج بين العلم والأدب.

٥ ـ الثقافة العلـمية تغوص فى أعمق أعماق الإنسان، وتحـاول أن تقدم له ما يروح به عن نفسه، نتيجة الجهد الذهنى الكبير فى التفكير، أو نتيجة الجهد العضلى المضنى فى العمل.

فى ضوء ما تقدم، تتجلى إسهامات المنهج التـربوى فى تأصيل الثقافة العلمية، فى الخـطوات الإجـرائيـة الـتالـية، الـتـى يتـم ذكرهـا كـرءوس موضـوعات، دون ذكـر تفصيلاتها، إذ يحتاج كل موضوع منها إلى دراسة مستقلة بذاتها.

١ ـ إبداع طرائـق وأساليب تـعليمـية جديدة تـهدف تنمـية روح الفهـم للمتـغيرات والتحـديات المجتمعيـة، التى تحدث خارج إطار مـنظومة التعـليم، وتهدف تنـمية روح الحياة التعاونية بين المتعلمين لمقابلة تلك المتغيرات والتحديات.

٢ ـ إكساب المـتعلمين أسـاليب السيـطرة والإتقان التـكنولوجى، مـن خلال تكليـفهم بعمل مشروعات صناعية محدودة.

٣ ـ تقديم الأطر المختلـفة للتخصصات المهنـية المتباينة، ووضع المتعـلمين فى مواقف تعليمية تعلمية تساعدهم على تقدير مـهاراتهم الجسمية وقدراتهم الذهنية بالنسبة لتلك التخصصات.

٤ ـ دراسة حياة وتاريـخ بعض الفلاسفة والعـلماء والأدباء والفنانين.. إلـخ، ممن لهم مواقف إيجابية تجاه قـضايا الحياة ومعضلاتها، وممن أسهموا فى خـدمة مجتمعهم بصمت وهدوء ودون ضجيج.

٥ ـ الإهتمام الشديد بأساسيات المحافظة على البيئة دون تلوث، أيا كان طبيعته أو نوعه، وبالأصول التى تحافظ على مقدرات البيئة دون إهدار.

٦ ـ الإنفتاح على العالم الخارجى، والتوعية بالأحداث والقضايا المصيرية، التى يموج بها.

٧ ـ تعليم: أساليب التفكير الصحيح، والتدليل السليم، والطرق المبتكرة فى حل المشكلات، وممارسة التعلم الذاتى بشكل منتظم.

٨ ـ توظيف مناهج التربية الفنية فى إنماء القدرات الإبداعية والفكرية والأخلاقية.

٩ ـ التوأمة بين الجسد والروح، فى ضوء المزاوجة بين العلم والأدب.

١٠ ـ إلقاء الضوء على بعض أبعاد ثورة المعلومات، كذا التطورات الجديدة فى مجال الحاسب الآلى، وأثرها على العلم والفن والثقافة والاقتصاد والسياسة.. إلخ.

١١ ـ الاهتمام بالقيم النظرية والعملية المرتبطة بمفاهيم الحرية والديمقراطية والسلام.

١٢ ـ إلقاء الضوء على الأساليب التى تقوم على أساسها التنمية فى شتى المجالات (إقتصادية، إجتماعية، تربوية،.. إلخ).

١٣ ـ استشراف علوم المستقبل، وتطوير موضوعات المنهج فى ضوء هذه العلوم.

١٤ ـ التأكيد على قيم الإنتماء، ومقومات السلوك الأخلاقى، بما يؤكد إحترام إنسانية الإنسان.

١٥ ـ إبراز أهمية الفكر الجديد، الذى يتطلع إلى القضايا الخاصة والعامة، والقضايا المحلية والقومية والعالمية.

١٦ ـ تحقيق الارتباط بين الثقافة والتنمية، وتفعيل العلاقة بين الثقافة والعلم.

***

خاتمة:

هذه الورقة البحثية، موضوعها: (المنهج التربوى وتأصيل الثقافة العلمية). ولتحقيق هذا الهدف، فإنها تطرقت لدراسة الموضوعات التالية:

١ ـ المقصود بالثقافة والثقافة العلمية.

٢ ـ ثقافة الفرد وثقافة المجتمع.

٣ ـ الثقافة كأحد مقومات الفكر الإنسانى.

٤ ـ دور المنهج التربوى فى إبراز العلاقة الدينامية بين الثقافة والإنسان.

٥ ـ المنهج التربوى وتأصيل الثقافة العلمية.

ويجدر الإشارة إلى أن الموضوعات السابقة، تمت معالجتها بإختصار، دون أن يخل ذلك بالمعنى أو المضمون. لذلك، يكون من المهم بمكانة، أن تتحمل بحوث ودراسات أخرى، مسئولية الدراسة الشاملة المستفيضة للموضوعات السابقة، لإبراز تفصيلاتها ودقائقها، ولإضافة الجديد والمأمول.

المراجـــع

(١) ت. س. إليوت، ترجمة شكـرى محمد عياد، **ملاحظات نحو تعريف الثقافة**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص١٩.

(٢) رايموند وليامز، ترجمة وجيه سمعان، **الثقافة والمجتمع (١٧٨٠-١٩٥٠)**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص ص ١٠ - ١١.

(٣) أبراهام مول، ترجمة أحـمد رضا محمد رضا، «وسائل الإتصال والوسـائل التربوية»، **مجلة مستقبل التربية** (اليونسكو)، العدد الثانى، ١٩٧٥، ص ص ٢٥ - ٣٥.

(٤) فديريكو مايور، «العقد العالمى للتنمية الثقافية»، **مجلة رسالة اليونسكو**، العدد ٣٣٠، نوفمبر ١٩٨٨، ص ص ٥ - ٦.

(٥) لويس عوض، «اليونسكو وتثقيف العالم»، **جريدة الأهرام** فى ٩/ ٤/ ١٩٨٨.

(٦) عاطف نصار، «القراءة وثقافة المستقبل»، **جريدة الأهرام** فى ٦/ ٩/ ٢٠٠١.

(٧) جون ديـوى، ترجمـة خيرى حـماد، **الفردية قديماً وحديثاً**، القاهرة: الـهيئة المصريـة العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٨) ت. س. إليوت، **مرجع سابق**، ص ٣٢.

(٩) **المرجع نفسه**، ص ٢٩.

(١٠) محسن توفيق، «التـنمية من منظور ثقافى: الثقافـة مصدر التقدم والإبداع»، **جريدة الأهرام** فى ٢٩/ ٣/ ١٩٩٦.

(١١) لويس عوض، **دراسات فى الحضارة**، القاهرة: دار المستـقبل العربى، ١٩٨٩، ص ص ٢٣ - ٢٤.

(١٢) مجدى عزيز إبراهيم، **دراسات فى المنهج التربوى المعاصر: رؤية لمنهج حديث من أجل جيل جديد فى عصر العولمة**، الطبعة الثانية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٠، ص ٢٥٥.

(١٣) ....، **المنهج التربوى وبناء الإنسان**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٤، ص ص ٥٥ - ٥٨.

(١٤) ....، **فى أدبيات المنهج التربوى**، القاهرة: دار نهضة الشرق، ٢٠٠٢.

(١٥) أبراهام مول، **مرجع سابق**، ص ص ٢٥ - ٣٥.

(١٦) السيد يسين، «النقد الذاتى فى نهاية القرن العشرين»، جريدة الأهرام فى ٦/ ٩/ ٢٠٠١.

(١٧) مصـطفى الـنشار، «الـتقدم الـعلمى - الـتكنـولوجى يـحدد صورة المسـتقبل»، **جـريـدة الأهـرام** فى ٦/ ٩/ ٢٠٠١.

(١٨) ميتشيـو كاكو، ترجمة سـعد الـدين خرفان، **رؤى مستقبلية.. كيف سيغير العلم حياتنا فى القرن الواحد والعشرين**. سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، العدد ٢٧٠، يونيو ٢٠٠١.